

المحاضرة العاشرة /حكم الاستنساخ البشري/ قسم الفقه واصوله

المعنى

من المعلوم أن سنة الله في الخلق أن ينشأ المخلوق البشري من اجتماع نطفتين اثنتين تشتمل نواة كل منهما على عدد من الصبغات (الكروموسومات) يبلغ نصف عدد الصبغات التي في الخلايا الجسدية للإنسان ، فإذا اتحدت نطفة الأب (الزوج) التي تسمى الحيوان المنوي بنطفة الأم (الزوجة) التي تسمى البيضة ، تحولتا معاً إلى نطفة أمشاج أو لقيحة ، تشمل على حقيبة وراثية كاملة ، وتمتلك طاقة التكاثر ، فإذا انغرس في رحم الأم تنامت وتكاملت وولدت مخلوقاً مكتملاً بإذن الله ، وهي في مسيرتها تلك تتضاعف فتصير خليتين متماثلتين فأربعاً فثمانياً .. ثم تواصل تضاعفها حتى تبلغ مرحلة تبدأ عندها بالتمايز والتخصص ، فإذا انشطرت إحدى خلايا اللقيحة في مرحلة ما قبل التمايز إلى شطرين متماثلين تولد منهما توأمين متماثلان ، وقد أمكن في الحيوان إجراء فصل اصطناعي لأمثال هذه اللقائح ، فتولدت منها توأمين متماثلة ، ولم يبلغ بعد عن حدوث مثل ذلك في الإنسان ، وقد عد ذلك نوعاً من الاستنساخ أو التنسيل ، لأنه يولد نسخاً أو نساقل متماثلة ، وأطلق عليه اسم الاستنساخ بالتشطير.

وثمة طريقة أخرى لاستنساخ مخلوق كامل ، تقوم على أخذ الحقيبة الوراثية الكامل على شكل نواة من خلية من الخلايا الجسدية ، وإيداعها في خلية بيضة منزوعة النواة ، فتتألف بذلك لقيحة تشتمل على حقيبة وراثية كاملة ، وهي في الوقت نفسه تمتلك طاقة التكاثر ، فإذا غرست في رحم الأم تنامت وتكاملت وولدت مخلوقاً مكتملاً بإذن الله ، وهذا النمط من الاستنساخ الذي يعرف باسم (النقل النووي) أو الإحلال النووي للخلية البيضية) وهو الذي يفهم من كلمة الاستنساخ إذا أطلقت وهو الذي حدث في النعجة " دوللي " . على أن هذا المخلوق الجديد ليس نسخة طبق الأصل ، لأن بيضة الأم المنزوعة النواة تظل مشتملة على بقايا نووية في الجزء الذي يحيط بالنواة المنزوعة . ولهذه البقايا أثر ملحوظ في تحوير الصفات التي ورثت من الخلية الجسدية ، ولم يبلغ أيضاً عن حصول ذلك في الإنسان.

فالاستنساخ إذن هو : توليد كائن حي أو أكثر إما بنقل النواة من خلية جسدية إلى بيضة منزوعة النواة ، وإما بتشطير بيضة مخصصة في مرحلة تسبق تمايز الأنسجة والأعضاء.

ولا يخفى أن هذه العمليات وأمثالها لا تمثل خلقاً أو بعض خلق ، قال عز وجل : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) الرعد /16 ، وقال تعالى : (أفرأيتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (59) نحن قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ المَوْتَ وما نحن بمسبوقين (60) على أن نُبدِلَ أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (61) ولقد علمنم النشأة الأولى فلو لا تذكرون) الواقعة /58-62.

وقال سبحانه : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخالق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) يس /77-82.

وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) المؤمنون /12-14.

وبناء على ما سبق من البحوث والمناقشات الشرعية التي طرحت:

قرر المجلس ما يلي:

أولاً : تحريم الاستنساخ البشري بطريقتيه المذكورتين أو بأي طريقة أخرى تؤدي إلى التكاثر البشري.

ثانياً : إذا حصل تجاوز للحكم الشرعي السابق فإن آثار تلك الحالات تعرض لبيان أحكامها الشرعية.

ثالثاً : تحريم كل الحالات التي يقم فيها طرف ثالث على العلاقة الزوجية سواء أكان رحمياً أو بيضة أم حيواناً منوياً أم خلية جسدية للاستنساخ.

رابعاً : يجوز شرعاً الأخذ بتقنيات الاستنساخ والهندسة الوراثية في مجالات الجراثيم وسائر الأحياء الدقيقة والنبات و الحيوان في حدود الضوابط الشرعية بما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد.

مع الإعلان عن استنساخ «النعجة دوللي» قبل نحو سنوات سبع سارع علماء الدين في مصر وغيرها من الدول العربية والإسلامية إلى إدانة هذه التجارب وحذروا من استنساخ الإنسان لخطورة هذا العمل لأنه يهدد حياة المجتمعات، وقد يقلبها رأساً على عقب فضلاً عن تعارض هذا الاستنساخ مع أحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية.

وأكد العلماء أن استخدام تقنيات الاستنساخ في مجال الإنتاج الحيواني والنباتي لتحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء الذي يحتاجه الإنسان وكذلك استخدامها في توفير أعضاء بشرية - كقطع غيار للاستغناء عن النقل من إنسان إلى إنسان سواء ميتاً أو حياً - مباح شرعاً.

وكان مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر قد أصدر بياناً غداة إعلان الطائفة الرائييلية في كندا عن ولادة أول طفلة مستنسخة وإعلان العالمة الفرنسية والعضو في طائفة الرائييليين بريجيت بواسولييه ولادة طفلة سميت حواء بتقنية الاستنساخ، وذلك قبل نحو عامين أكد فيه أن استنساخ البشر محرم قطعياً ويجب التصدي له ومنعه بكل الوسائل وذلك قبل نحو عامين.

وأوضح البيان أن الاستنساخ يعرض الإنسان الذي كرمه الله لأن يكون مجالاً للعبث والتجربة وإيجاد أشكال مشوهة وممسوخة، مشيراً إلى أن الإسلام لا يعارض العلم النافع بل يشجعه ويحث عليه ويكرم أهله، أما العلم الضار الذي لا نفع فيه أو الذي يغلب ضرره على نفعه فإن الإسلام يحرمه ليحتمي البشر من أضراره.

من ناحية أخرى أكدت فتوى للشيخ يوسف القرضاوي أن تقنية الاستنساخ تتناقض مع اختلاف الكون لأن الله خلق الكون انطلاقاً من اختلافه بينما يقوم الاستنساخ على إعادة نسخة من خصوصيات الجسد، مشيرة إلى أن الاستنساخ يناقض النموذج الكوني المرتكز على كافة مخلوقات الله التي تأتي من أزواج بينما يرتكز الاستنساخ على جنس واحد بالإضافة إلى أن الطفل المولود بتقنية الاستنساخ لا يكون ثمرة تزاوج جيني بين الأب والأم بل إعادة مطابقة للأصل لأحد والديه.

وقال الشيخ القرضاوي في فتواه إن استنساخ أجزاء معينة من جسد الإنسان مثل القلب والرئتين لمعالجة الأمراض مسموح به ومطلوب لأن الإسلام يشجع التقدم في كافة مجالات العلم طالما يتطابق مع المبادئ الدينية مؤكداً جواز استنساخ الحيوان إذا أتى بمنفعة كبيرة للبشر ولكن يجب ألا ينطوي على انتهاكات أو تعذيب للحيوان.

من جانبه أكد الدكتور صبري عبدالرؤوف أستاذ الفقه المقارن بكلية طب الأسنان جامعة الأزهر أن الاستنساخ الذي يتعلق بأي شيء بعيداً عن الإنسان وأعضائه لا نتعارض معه، إما استنساخ الإنسان فهو لون من ألوان العبث والفوضى لأن هذا يتعارض مع أحكام الإسلام ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء»، فكيف يتم « استنساخ الإنسان بعيداً عن الرحم، كما أن القرآن الكريم تحدث في آيات كثيرة عن خلق الإنسان وتكوينه فمن هذه الآيات ما جاء في قول الله «أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين»، وقال تعالى: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يكن نطفة من مني يماني ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى»، ويقول تعالى أيضاً: «فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب».

الأعضاء البشرية *

ويوضح أن كل هذه الآيات وما ماثلها من آيات القرآن الكريم تؤكد أن قضية الاستنساخ المزعومة قضية باطلة ولا أساس لها من الصحة، مشيراً إلى أنه كان من الأفضل لهؤلاء العلماء العاملين في هذا المجال أن يستنسخوا بعض الأعضاء البشرية التالفة عند بعض الناس كالكلب والكلبي وبعض الأجزاء البشرية للإنسان لكنهم في الحقيقة يعجزون عن خلق ذبابة فكيف يستطيعون تخليق النطف البشرية التي ركبها الله من عناصر معينة تعجز البشرية أن تحققها وكما يقول الله: «فتبارك الله أحسن الخالقين».

خمس صور *

ويشير الدكتور محمد رأفت عثمان العميد الأسبق لكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر إلى أن الذي حدث في استنساخ النعجة دوللي هو أنه أخذت بويضة نعجة ونزعت منها النواة ثم وضعت في بويضة النعجة الأولى بدلا من النواة التي نزعت منها ثم سلط تيار كهربائي في المعمل على البويضة والنواة الجديدة فالتحما، ثم بدأت تنقسم إلى خليتين ثم أربع ثم ثماني.

وكانت المفاجأة أنه تبين أن هذه بداية تكوين جنين فأخذت هذه البويضة - النواة المنقسمة إلى عدة خلايا - ووضعت في رحم نعجة ثالثة واستمر الحمل وولدت النعجة دوللي، موضحا أن الاستنساخ ليس فيه حيوان منوي يخصب بويضة أنثى، وإنما يستعان فيه بنواة من خلية لتوضع في بويضة نزع نواتها.

ويؤكد وجود خمس صور للاستنساخ، الأولى: أن تكون النواة مستجلبه من خلية أنثى أخرى أي يكون هذا العمل بين انثيين كما حدث في مجال الحيوان بالنسبة للنعجة دوللي.

الثانية: أن تكون النواة من الأنثى نفسها، أي أنه يمكن أن يحدث استنساخ من نواة من خلية من المرأة ذاتها.

الثالثة: أن تكون النواة مستجلبه من خلية ذكر حيوان - غير إنسان - وهذا العمل تجرى عليه التجارب في الغرب الآن.

الرابعة: أن تكون النواة من ذكر، أي من رجل ليس زوجا للمرأة.

الخامسة: أن تكون النواة مستجلبه من رجل هو زوج للمرأة.

ويوضح الدكتور عثمان أن الحكم الشرعي يختلف من حالة إلى أخرى، فحكم الصورة الأولى وهى ما إذا كانت النواة مستجلبه من أنثى لأنثى حرام شرعا لأن الشريعة الإسلامية تحرم الاستمتاع الجنسي بين أفراد النوع الواحد، وعلى هذا يكون الانجاب محرما لأنه إذا كان الإسلام يحرم مجرد استمتاع الأنثى بالأنثى جنسيا، وهو ما يسمى بالسحاق، فإنه يكون من باب أولى محرما للانجاب بين الأنثى والأنثى.

بالإضافة إلى أن الإسلام حرم الضرر سواء كان بالنفس أو بالغير وفي عملية الاستنساخ بين امرأة وامرأة سينتج مولودة أنثى لن يكون لها أب أو جد أو عم فتنشأ الطفلة باحساس أنها ليست كسائر بنات جنسها، وهذا يؤدي إلى الألم النفسي والألم النفسي نوع من الأضرار الممنوعة شرعا وهذا الحكم ينطبق على الصورة الثانية وهى الاستنساخ بخلية من المرأة نفسها.

ويضيف أما الصورة الثالثة وهى الاستنساخ بين الحيوان والإنسان فهذا عبث وقد نتج عنه مولود لا يكون على الفطرة السوية الإنسانية وهذا تشويه لخلق الله، وأما الصورة الرابعة وهى إذا تم الاستنساخ بين امرأة وخلية رجل ليس زوجها فهذا حرام لأنه في معنى الزنا ويؤدي إلى اختلاط الأنساب وأما الصورة الخامسة وهى ما إذا كان الاستنساخ من نواة أخذت من الزوج ووضعت في بويضة الزوجة فمن المحتمل أن يكون هذا مشروعاً في حالة الضرورة.

ويخلص الدكتور عثمان إلى القول إنه إذا كان الاستنساخ تم بين زوجين و تثبت به للمولود كل الحقوق المشروعة للولد من الميراث وثبوت النسب وكافة الحقوق المشروعة للأولاد فهذا جائز أما إذا كان الاستنساخ قد تم بين أنثى وأنثى أو كانت النواة من الأنثى نفسها أو كان بين أنثى ورجل ليس زوجها فكل هذه الصور محرمة، مؤكداً أن التجارب التي تجرى الآن في الغرب لاستنساخ أعضاء بشرية تؤخذ من جنين إنساني إذا وصل إلى مرحلة معينة من النمو لتزرع في إنسان آخر حرام لأن استعمال الأجنة في أخذ أعضائها وزرعها للمرضى جناية على هذه الأجنة.

تقليد ومحاكاة *

ويشير الدكتور حسن الشافعي أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة أن وصول الاستنساخ إلى الدائرة البشرية أي محاولة استحداث نسخ من البشر يمثل خطراً حقيقياً على المجتمع الانساني ويهدد أمنه واستقراره.

وقال نحن لسنا ضد حرية البحث العلمي ولا يمكننا تقييده أو منعه لكننا نناشد العلماء أن يهتموا بالضمير العلمي وبالقيم الإنسانية أثناء ممارساتهم حرية البحث واطاف إذا كان الاستنساخ في نطاق الحيوانات والنبات فليس في ذلك خطورة إلا في ناحية واحدة عندما يتصور بعض الناس - وهم مخطئون بالطبع - أن في ذلك منازعة لله في الخلق، مشيراً إلى أن ذلك غير صحيح لأن الخلق الإلهي إبداع مطلق وإخراج من العدم إلى الوجود، أي لا يحتاج إلى مادة سابقة ولا يحتاج إلى وقت أو زمن.

:يقول - سبحانه وتعالى

إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»، والخلق الإلهي لا يحتاج إلى آلات أو أدوات فالإرادة الإلهية بالقدرة المطلقة توجب ما تشاء أما الذي يحدث في الاستنساخ فلا يعدو كون العالم يقوم - طبقاً لطريقة فنية معينة لا نعلمها ولا نحيط بكل جوانبها - باقتراض بويضة من أثني حيوان من الحيوانات الثديية ثم خلية حية من مصدر آخر وتفرغ البويضة من نواتها ويضع فيها نواة الخلية الحية ويستودع الخلية المعبأة أحد الأرحام - أي حيوان ثالث - فتتمو هذه الخلية ويولد حيوان مطابق تماماً للأصل الذي أخذت منه الخلية

ويوضح الدكتور الشافعي أن الكائن الحي الذي نحصل عليه في تلك الحالة له أم وله أصل وإن لم يكن له أب فالعالم يقترض الخلية أو البويضة ويستغرق زمناً ويستأجر رحماً وبالتالي فليس في الأمر منازعة للخلق الإلهي مؤكداً أن الاستنساخ نوع من التقليد للخلق الإلهي وهو مجرد محاكاة محدودة وأن الطريقة العادية في التوالد هي الغالبة

وقد ضرب الله - تعالى - المثل في كتابه الكريم «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه الله من تراب ثم قال له كن فيكون»، فإذا كان الخلق الإلهي في الطريقة الغالبة يتوقف على وجود مصدرين الأب والأم فإنه في هاتين الحالتين تم خلق آدم دون أب وأم وخلق عيسى دون أب

وأشار إلى أن الاستنساخ من الناحية العقائدية لا يمثل مشكلة ولا خطر منه لكنه من ناحية أخرى يؤدي إلى اختلال النظام الكوني لأن الكون له نظام ويسير وفق خطة لا نعرفها. يقول تعالي «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم»، موضحاً أن هناك نظاماً للموت أو الحياة والهدم والبناء لا نعرفه.

وخلص الدكتور الشافعي إلى القول «نحن نخشي إذا تركنا أمر الاستنساخ للعلماء يفعلون فيه ما يشاءون أن يتسبب ذلك في إحداث خلل في النظام الكوني هذا في حالة بقاء الاستنساخ في إطار الحيوانات والنباتات أما إذا انتقل إلى الإنسان فسوف يتسبب ذلك في إحداث خلل واضطراب في النواحي الأخلاقية والاجتماعية، ودعا العلماء إلى الاستمرار في بحوثهم في مجال «الاستنساخ لكن بعيداً عن البشر».

القاهرة - ضياء الدين أحمد